**المحاضرة السابعة: إدوارد إيفان إيفانز- برتشارد (1902- 1973)**

Edward Evan Evans-Pritchard

1/التّعريف:ولد سنة 1902 في مقاطعة سوسكس، و هو إبن قس من أصل غالي. درس التّاريخ المعاصر في أكسفورد ثم الأنثروبولوجيا في المدرسة العليا للدراسات الاقتصادية في لندن. حيث حصل على الدكتوراه عام 1927. تتلمذ عل يد سليغمان، ثم باشر تحت إشرافه أولى مهامه في السودان الأنكلو-مصري بعدما تلقى دروسا على يد مالينوفسكي الذي بقي دائما متحفظا حياله، و رادكليف براون- لقد جعله هذا الأخير يكتشف دوركايم و علم الاجتماع الفرنسي. لكن بريتشارد استبعد باكرا فكرة الأنثروبولوجيا كعلم طبيعي للمجتمعات. من عام 1926 على 1940 قام بريتشارد بالعديد من المهمات في السودان و لم يقطع إقامته الطويلة في الميدان سوى لفترات التعليم القصيرة في المدرسة العليا للدراسات الاقتصادية في لندن، و في جامعة فؤاد الأول بالقاهرة حيث تبوأ مقعد كرسي علم الاجتماع (1932-1934)، و في أكسفورد أصبح أكثر قربا من معهد الأنثروبولوجيا الاجتماعية الذي أسسه رادكليف براون. في عام1940 استخدمت الحكومة البريطانية خبرات بريتشارد لتنظم تمرد الأنواك ضد الإيطاليين الذين يحتلون أثيوبيا، قبل إرساله إلى سوريا لدى طائفة العلويين من عام 1942- 1944 ثم مستشارا للإدارة العسكرية في ليبيا، و هناك درس بريتشارد طائفة السنوسية المسلمة، و بعد انتقال قصير إلى كمبريدج عام 1945 حيث خلف أستاذه رادكليف براون على كرسي علم الاجتماع في أكسفورد إلى غاية إحالته على التقاعد. توفي سنة 1973، تاركا مراجع بحث بأكثر من 400 عنوان. 2/إسهامه: يُقدم إيفانز برتشارد بأنه سر أنثروبولوجيين كبار من أمثال رادكليف براون و مالينوفسكي، حيث اعتبره براون أنثروبولوجيا كبيرا، و على الرّغم من إعجابه بالعمل الذي أنجزه حول النّوير، وجه نقدا لاذعا لهذه الدراسة تجاوز الجوانب الشكلية ليطال الدلالة المتعلقة بمفهوم "البنية الاجتماعية". يقول براون: "يكتفي بعض الأنثروبولوجيين بحمل عبارة البنية الاجتماعية على مجموعات اجتماعية دائمة إلى حد ما كالأمم و القبائل و العشائر التي تتمكن من الحفاظ على استقرارها و هويتها مهما طال مكوناتها من تغيرات. و لعل الدكتور بريتشارد في أحدث و أروع مؤلف له حول النوير، يفضل استعمال البنية الاجتماعية بهذا المعنى- و الحق إن وجود مجموعات اجتماعية تتمتع باستقرار دائم عنصر بالغ الأهمية في تحديد مفهوم البنية الاجتماعية، بيد أنه من المجدي أكثر أن نمنح لهذا المفهوم "دلالة أرحب" " \_ كما رد بريتشارد على دراسة براون حول الخال في جنوب إفريقيا، فبالرغم من كونه حبذّ استبعاد هذه الدراسة لفكرة الأنقاض أو البقايا الناجية les survivances إلا أنها لم تف على ما يبدو له بوعودها فيما يخص ما رفعته من دعوى الارتقاء إلى نموذج المنهجية العلمية. فاستدلالات براون لا تغدو أن تكون تحصيل حاصل لأنه استكمل تفسيراته العقلية و المنطقية للظاهرة الاجتماعية قبل الاستعانة بأمثلة من الواقع. و على هذا فإن الطابع النّقدي و التّركيبي الذي ميز أعمال بريتشارد كان بمثابة تأريخ للأنثوبولوجيا و مساءلة النّظريات السابقة، و لهذا نفترض وجود أعمال مالينوفسكي و رادكليف براون ثانوية في المتن الربيتشاردي. فبحسبه، مهمة الأنثروبولوجيا لا تنحصر في دراسة ظواهر معزولة عن بعضها البعض بنية فهم أسبابها و تفسير الدوافع التي تكمن خلفها بل تتمثل في فحص العلاقة بين مجموع المعارف النظرية والحياة الاجتماعية للبدائيين. ففي كتابه"الديانة لدى البدائيين من خلال نظريات الأنثروبولوجيين" يؤكد بريتشارد أن ما فهمه ليس هو الديانات القديمة في حد ذاتها و إنما مختلف النظريات التي ألقت على عاتقها تفسير لهذه الديانات. هذا الذهاب و الإياب بين الأنثربولوجية التطبيقية و الأنثربولوجية النظرية هو ما جعل من بريتشارد أنثروبولوجياً و مؤرخاً للأنثربولوجيا في نفس الوقت. كما أن الأنثربولوجيا الأنجلوسكسونية تخلي مكانها تدريجيا لمقاربة أقل طموحا، تعتبر فيها أن الأنثربولوجيا و السوسيولوجيا علمين شقيقين. لكن لكل منهما ميدانه الخاص و الاختلاف يكمن في كون أن مسعى الأنثربولوجيا كما وضع أسسها البريطانيون مسعى عام لا يقتصر على فهم بنيات و أنماط السلوك الاجتماعي داخل المجتمعات البدائية فحسب بل يتوخى فهم الإنسان على وجه العموم. 3/بريتشارد و منهج المقارنة: يدعو إلى ضرورة التّدرج في الدراسة، من المجتمعات البسيطة إلى المجتمعات المركبة . فتعريف الأنثربولوجيا انطلاقا من موضوعها يجعل منها سوسيولوجيا خاصة أو فرع من فروع السوسيولوجيا، إلا أن الحدود الفاصلة بينهما تكمن في : 4/إيفانز بريتشارد و التاريخ: قلنا أن براون رفض التفسيرات التاريخية القائمة على التّأملات الظّنية، و لكلنه كان يصر على أن رفضه هذا لا يرجع إلى كونها تاريخية و إنما لكونها ظنية. و لكن مالينوفسكي كان يرفض التّفسيرات التّاريخية حتى عندما كان الاتجاه التّاريخي يفرض نفسه في دراسة التّغير الاجتماعي و التّسرب الثّقافي من خلال البحث عن نقطة الصفر أو الاستعانة بذكريات كبار السّن، أما ماكس كلاكمان يعتبر أن مالينوفسكي لم يهمل الاتجاه التّاريخي لأن رفضه يتناقض مع استخدامه المستمر له في كل ما يقوم به من تحليلات جيدة. أما بريتشارد فكان يعتبر أن الأنثربولوجيا الاجتماعية أقرب إلى بعض فروع الدّراسات التّاريخية منها إلى أي من العلوم الطّبيعية مع بعض الفروق الطفيفة، منها: 1/ الأنثربولوجيا تدرس الحياة الاجتماعية من الواقع مباشرة، بينما يدرسها التّاريخ بطريقة غير مباشرة، أي من الوثائق المدونة و غيرها من المصادر. 2/ تدرس الأنثربولوجيا المجتمعات البسيطة حتى و إن لم يكن لديها تاريخ مدون، كما أنها تهدف إلى معالجة مواضيعها بدرجة أعلى من التّجربة بغرض الوصول إلى المقارنة و التّعميم، و هو ما لا يتوفر في الدّراسات التّاريخية. 3/ إذا كان المؤرخون يدرسون الوقائع التي حدثت في أزمان متوالية، فإن الأنثربولوجيين يزيدون على ذلك دراسة المشكلات و الموضوعات المتزامنة، أي التي تقع في فترة زمنية محددة. \_ و من الدّراسات التي ظهر فيها استخدام الاتجاه التّاريخي بشكل واضح لدى بريتشارد "السّنوسية في برقة عام 1949" و التي عالج فيها نمو الدّعوة السّنوسية من النّاحيتين السّياسية و الدّينية و كان حريصا في بديتها على أن يقول:"إنني لا أحاول كتابة تاريخ برقة، وإنما أتابع فقط نمو السّنوسية بين القبائل البدوية في المنطقة" بحيث أن فصول الكتاب تناولت فكرة الالتقاء بين الحركة من جهة و أتباعها من جهة أخرى. ثم الدّور الوظيفي الذي قامت به بعد هذا الالتقاء عندما تحولت الظروف إلى مواجهة مع الثّقافة الغربية الدّخيلة في صورة الغزو الإيطالي لليبيا سنة 1911. ثم تطرق إلى نشأة و انتشار السّنوسية←البدو في برقة ← السّنوسية و القبائل ←الحكم التّركي ← الحرب الإيطالية السّنوسية. إذ لم يكن من الممكن أن يظهر إيفا نز بريتشارد هذا النموذج الواضح لانبثاق الدور السياسي لإحدى الحركات الدّينية إلا من خلال المعالجة التاريخية لموضوع البحث. 5/قبائل النوير النظرية الانقسامية : (التميز بين طبيعة البنية و مبدأ عملها) نوّه بريتشارد في كتابه "الانتربولوجيا الاجتماعية" بأهمية إسهام مونتسكيو في نشأة الأنتربولوجيا الاجتماعية و التمهيد لها . ومن بين الأفكار العديدة التي اشتمل عليها كتابه الخالد "روح الأرواح"، شدد بريتشارد على فكرتين أساسيتين : 1) حالة الترابط و التبعية المتبادلة بين ظواهر المجتمع بحيث لا يمكن فهم القانون الدستوري الجنائي و القانون الدستوري المدني الدوليين إلا في ضوء علاقتهما بالبيئة الطبيعية التي تعيش في كنفها المجموعة السكانية قيد الدراسة ،و عدد أفرادها و اقتصادها و معتقداتها الدينية و أعرافها والممارسات التي تميز أفرادها، و استعدادهم الخاص، و كل هذه العلاقات تشكل في النهاية ما يسميه مونتسكيو:"روح القوانين". 2)التميز الذي يقيمه مونتسكيو بين طبيعة نضام الحكم و مبادئه .

الجدول الآتي لطبيعة البنية السياسية لقبائل النوير: B A

 Y X

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
|  | X1 |  |
| Z1 | X2 |
| Z2 |

بحيث تمثل AوB القبائل و X وY العشائر . X1 وY1 Y2سلالات عليا ثم Z1 و Z2 سلالات دنيا. - تتميز البنية السياسية لقبائل النوير بطابعها الانقسامي، يتماهى فيها النظام السياسي بنظام القرابة . - تتكافأ فيها الأجزاء و تتخذ طابعا سلاليا . - للأجزاء نفس الخصائص التي تميز القبائل فهي تحمل اسما خاصا بها، و تمارس سيادتها فوق مجال ترابي محدد و يتمتع أفرادها بشعور مشترك. - تضيق هذه الأجزاء و تتسع بحسب الشروط السوسيوسياسية، تغيب فيها أي تراتبية سياسية، و لا وجود فيها لسلطة عليا، فنظام القرابة فيها بمثابة جسم بدون رأس une parenté acéphale.